

الدور واللغة في السبوح

الاستاذ عباس خضر

—

أشرت في عدد مضى من « الرسالة » إلى المحاضرة التي ألقاها الدكتور أحمد أمين بك في حفلة افتتاح مؤتمر جمع فؤاد الأول للغة العربية ، وموضوعها « جمع اللغة العربية » ووعدت بتلخيصها تلخيصاً يتضمن فكرتها كاملة . واليوم أذكر هذه الخلاصة ، ثم أعقب عليها ببعض الملاحظات

بدأ الدكتور بأن المثقفين كانوا في العهد الأول وصدر من الدولة العباسية بأخذون اللغة من أفواه العرب ، وكان بعضهم يذهب إلى البداية وقيم فيها ليتعلم فصيح اللغة من أهلها ، فلما جاءت موجة التدوين اهتم قوم بجمع اللغة ، فجمعوها أولاً من لغة القرآن الكريم والأحاديث التي سمعوا عندهم ، ثم تنقلوا بين القبائل العربية يجمعون كل ما يسمعون . ثم جد المؤلفون بعد ذلك في حذوهم حذو أهل الحديث ، فجمعوا اللغة إلى متوازن وآحاد . وبين المحاضر معنى كل من التوازن والآحاد ، وعنى خاصة بالاعتراض على الطرق المختلفة لجمع اللغة ، ووصل من ذلك إلى أنها كانت بدائية غير منتظمة ، إذ قال : إنما كان عملهم في الجمع بدائياً غير منظم ، إذ كانوا يلتفتون ما يسمعون من الألفاظ ويدونونها ولم ينصوا في الأمم الأغلب على القبيلة الواحدة التي جمعوا منها ألفاظهم

وأعبر تلك المقدمة عبراً ، فالمحاضر - فيما يبدو لي - يبنى من عرض طرق جمع اللغة وما أدت إليه من الكثرة وتضخم المعاجم ، الوصول إلى « الترادف » ليعنّده ويحيط فيه رأيه . فالترادف أصله جمع الألفاظ من أمثال المختلفة لتكون كلها لغة عربية ويقع فيها تعدد الكلمات لمعنى واحد آنياً من استمال كل قبيلة الكلمة منها ، يقول الدكتور : والقبائل كانت أعقل من أن تضع كل قبيلة لفظين لاسم واحد ، فالقبيلة التي تستعمل كلمة « السكين »

لا تستعمل كلمة « المديّة » والقبيلة التي كانت تستعمل « البئر » لا تستعمل كلمة « الغليب » فلما كان الجمع بدائياً ، وجدت ألفاظ كثيرة مترادفة ، ومن ثم كانت المعاجم مخلوطة بالتراذفات . وفي رأي أن التراذفات مع إيمانها للشاعر خصوصاً في الشعر العربي الذي يلتزم الغافية وخصوصاً في الملاحم الطويلة التي تستعمل على أبيات كثيرة يحتاج منها إلى مترادفات كثيرة . وقد أنكرها ابن فارس وطلب ، فقد روى أن ابن خالويه قال في حضرة سيف الدولة بن حمدان : إني أعرف لاسيف خمسين اسماً ، فقال ابن فارس إني لأعرف له إلا اسماً واحداً وهو السيف . فقال ابن خالويه : وماذا تقول في المهند والمصمصام والشار ؟ قال إنها صفات . يعني بذلك أنها اختلفت للدلالاتها على صفات غير الاسم ، وذلك كأنحاء الله الحسنى فإنها تدل على صفات أكثر مما تدل على ذوات . والتراذف في نظري ليس مزية من مزايا اللغات ، بل هو عيب من عيوبها ، فإن كان موجوداً في اللغات الحية كالإنجليزية والفرنسية فهو أثر من آثار اللغات القديمة . والمثل الأعلى للغة : لفظ واحد لكل معنى ، فلا تراذف ولا اشتراك ، ولذلك كانت المترادفات في اللغات القديمة أكثر منها في اللغات الحديثة . ومع أن ألفاظاً كثيرة عدت مترادفات وإن لم تكن مترادفة لدقة الفروق بينها مما أدى إلى عنابة بعض العلماء من مستشرقين وعرب إلى تأليف كتب في الفروق ، كما فعل أبو هلال العسكري وكما فعل بعض الآباء اليسوعيين - إلا أنها مع ذلك من غير شك كثيرة في اللغة العربية ، مما ملأ المعاجم بالتراذفات وتضخمها ضخامة كاذبة

وأخيراً قال الدكتور : ماذا نستنتج من كل ذلك ؟ نستنتج منه أن اللغة قد تضخمت تضخماً مزيفاً كثيراً ، وكانت نتيجة ذلك تضخم المعاجم تضخماً أيضاً مزيفاً ، وقد كان يقبل هذا لو لم ندهمنا الحضارة الغربية بكثير من المسميات والمعاني محتاج لها إلى ألفاظ كثيرة ، وهي تنمينا كل يوم بمئات المصطلحات التي كثيراً ما نتجز عن مسايرتها ، فكان الممول أن تتخفف من كثير من الكلمات ، لفسح مكاناً لها في المعاجم . وقد فعلت قريش خيراً مما فعله جامعو اللغة العربية ومؤلفو معاجمها ، بأنهم صفوا اللغات المختلفة ونقوا خيرها واستعملوه لغة لهم وبها نزل القرآن ، فلم يجمعوا كل ما قيل عن القبائل بل تخلوه واقتصروا

أن نستغنى عنها . وأما أوافق الأستاذ الكبير على أن قافية الشعر ليست مقدسة وأنها لا تبرر ذلك التضخم الذى وصفه ، بل إننى أذهب إلى أبعد من ذلك ، فأعجب كيف ثرنا على القافية فى الشعر المسجوع وأقررناها فى الشعر ، والأمر فيهما واحد من حيث التقييد الصناعى الذى يرجع إلى الأذن الموسيقية

ولكن هل كل الفرض من الترادف الإبانة على القافية ؟ لقد جاء فى تبير الدكتور بالمحاضرة قوله : « فأنهم صفوا اللغات ونقوا خيرها » . رى لماذا استعمل « نقوا » بدل « اختاروا » ؟ إنه فعل ذلك لأن عبارة « اختاروا خيرها » يشغلها اجتماع الخاءين وهنا أسمفه الترادف بالفعل « نقي » الذى لا يشغل فى النطق والسمع مع « خيرها » ، وقال أيضاً : « واقتصروا على ما حسن وقمه فى أسماعهم وراق فى أذواقهم » ولو أنه كرر « حسن » مكان « راق » لا حسن وقع الكلام فى الأسماع وراق فى الأذواق . . . ولو أنه أخذ باقتراحه فى سياغة المحاضرة فقرر الاكتفاء بالفعلين اختار وحسن دون مرادفاتهما لوقع فى حرج من ثقل التعبير . ومثل هذا ما قاله الأستاذ نفسه عند نقي الترادفات فى القرآن ، فقد رأى أن ما فيه كلمات تختلف باختلاف موضعها فقد تكون كلمة أوقع فى عملها وتكون أخرى أوقع فى عملها الآخر والتأمل فى هذا لا يراه خارجاً عن الترادف وإنما هو استعانة به على استعمال الشيء فى موضعه

وقد تعرض الأستاذ لراى ابن فارس فى الترادف إذ أنكر ابن فارس وجوده فى اللغة ووجه الكلمات المتعددة التى تطلق على شىء واحد بأن واحداً منها هو الاسم والباقي صفات كأسماء الله الحسنى ، ولم يعن الأستاذ بتفنيد هذا الراى مع أنه يتفق وفكرته من حيث رأى أن اللغة تشغلها مترادفات كثيرة يجب التخلص منها . وفى نظرى أن تلك الكلمات وإن كان قد لوحظ فى استعمالها الأول ما بينها من فروق إلا أن هذه الفروق قد ذهبت مع الزمن وصارت الكلمات ذات دلالة واحدة ، فالشاعر - مثلاً - إنما يأتى بكلمة « مهند » لأن القصيدة دالية ، ولو كانت ميمية لآتى بلفظ « مصمصام » من غير لك

ولو فرضنا أن هناك لغة ينطبق عليها المثل الأعلى الذى ذكره الأستاذ ، فإن الإنسان لا يتصور لهذه اللغة أدباً ، فقد كفى بحاجة

على ما حسن وقمه فى أسماعهم وراق فى أذواقهم . بقى سؤالان هامان ، وهما : ألم يرد فى القرآن الكريم مترادفات لنثبت أن تريباً اختارت من اللغات أحسنها ، والسؤال الثانى : أهما خير ، أنضحى بوحدة القافية فى الشعر لتنقية اللغة من المترادفات ، أم نبقى عليها للابقاء على الشعر العربى فى شكله القديم ؟ ومن رأينا فى الإجابة عن السؤال الأول أن ليس فى القرآن مترادفات ، وإنما كلمات متقاربة المعنى وقتت الفروق بينها أو على الأقل اختلف وقع الكلمة باختلاف موضعها ، فقد تكون كلمة أوقع فى عملها ، وتكون الأخرى أوقع فى عملها الآخر ، وقد أدرك الجرجاني فى دلائل الإعجاز ذلك إذ قال إن كلمة أيضاً ليست من الكلمات التى تستحسن فى الشعر ولكن وردت جميلة فى بيت شعر وهو :

غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

وأما عن السؤال الثانى فيمكننا أن نهدر المترادفات ونهدر معها ورود القصيدة على قافية واحدة ، ويمكن فى الملاحم وأمثالها أن نغير القافية فى كل عدة أبيات كما اضطر البستاني أن يفعل فى ترجمة الإلياذة ، وبذلك كله نفسح مكاناً واسماً فى المعاجم للكلمات الحديثة والمصطلحات الحديثة . وإذا لم نتح لنا فرصة الإجادة فى الشعر المرسل كما حدث فى بعض اللغات ، فليس أقل من أن نثير القافية بين جملة من الأبيات وأخرى ، وإيست وحدة القافية بالأمر المقدس الذى لا يصح أن نخرج عنه ، ولكنه أمر اعتيادى وتقليدى ، مردد كله إلى الأذن الموسيقية

تعقيب

نرى أن النتيجة العملية التى يستخلصها الدكتور أحمد أمين بك من ذلك البحث الذى يعتبر حلقة فى سلسلة بحوثه اللغوية التجديدية التى يلقبها فى مؤتمرات الجمع - هى إعادة النظر فى ذلك التراث اللغوى التضخم دون فائدة لنحذف منه المترادفات كي نحمل عملها فى المعاجم الكلمات والمصطلحات الحديثة ، ويرى الأستاذ أن المثل الأعلى للغة أن يستعمل فيها لفظ واحد المعنى الواحد وأن لا حاجة إلى المترادفات إلا فى قافية الشعر التى يمكن

« المحاضرة » فرنسا على ما قامت وتقوم به من أعمال لتقدم أهل شمال إفريقيا ورفيهم . . . أي أنها تشكرها على الاستعمار !
وقد علمت أن في النقابة برنامجاً لأحداث في سلسلة أسرار المهنة في رحلات بيلاذ مختلفة ، وكل الذي أرجوه ألا يحدثنا أحد عن رحلة في مصر يشكر فيها إنجلترا ...

الموسيقى والدين :

يقول الأديب « حافظ عبد السميع عمران » في رسالة إلى :
« قرأت كلمة طريفة بجريدة المصري مؤداها أن نستعين بالموسيقى في جميع ترانيلنا الدينية . ويسأل صاحب المقال ويسأل منه مؤيدوه : لماذا لا نرتل القرآن والأذان وخطبنا الدينية على نغمات الموسيقى ؟ إن الموسيقى تنقلنا إلى عالم الانتشاء الحسى والاستمتاع الروحي فلماذا لا نتخذها وسيلة لذوق ديننا ؟ » ثم يقول : « ونحن لا نرتاب في أن الموسيقى تحرك الفرائز وتثير الشهوات وتنبهنا على الهوى وتدفعنا إلى السيطرة على العقول والإرادة الإنسانية ، فما فائدتها إذن الدين ؟ » ويمضى هكذا حاملاً على الموسيقى لأنها - في رأيه - تثير الفرائز وال رغبات الشهوانية إلى أن يتساءل : وأين قداسة الدين في جو تسوده الإباحية والتحلل الخلقى ... في جو يسيطر عليه المجون والخلاعة ؟ أيريدون أن نهبط بالدين إلى الهاوية التي صرنا إليها ونجعله أداة لهو إشباعا لرغباتنا الشهوانية الوضيعة ؟

ولا شك أننا لا نرى الموسيقى بذلك المثابة ، فالموسيقى فن رفيع ، وقد أصبح بيان أهميته وأثره في الإمتاع الروحي وترقية النفوس وما إلى ذلك ، من الكلام المقرر الماد . أما استخدام الموسيقى في اللهم الرخيص من حيث ما بصاحبها من غناء مبتذل ورقص مثير ، فهو أمر آخر لا ينبغي أن نخلط بينه وبين الفن الموسيقي العالي

أما ما كتب عن اتخاذ الموسيقى في ترسيل القرآن والمخطب الدينية والأذان فهو كلام يعمد إليه بعض زملائنا الصحفيين لإطراف القراء وإتحافهم بما يلفت الأنظار ويجدد النشاط للقراءة . . . وإذا كان الكاتبيون الداعون إلى ذلك جادين في دعوتهم فإنهم ولا شك يمدون كل البمد من روح الإسلام وثقافته ، وليس

التعبير العلمى واليومي ، ولكنها تكون مبيدة جداً من الاعتبارات التي تلاحظ في حسن وقع الكلام ، وفضل كلمة على أخرى في موضعها ، وفي الظلال التي يضيفها لفظ دون آخر ... إلى آخر هذا الذي يحتاج إلى بحث وحده

على أنني أوافق أستاذنا الكبير الدكتور أحمد أمين بك إذا كانت خلاصة موضوعه : الضيق بالكثرة المتضخمة من المترادفات في لغتنا وأكثرها ألفاظ حوشية وكلمات ميتة ، والدعوة إلى تصفية اللغة منها مع الإبقاء على المترادفات الحية المألوفة وذلك كما فعلت قريش ، فإنهم لم يهدروا المترادفات كلها ، وما أظن الأستاذ يقول بذلك ، وإنما نراه يحتاط في التعبير إذ قال إنهم اختاروا من اللفات أحسنها ، وهذا ما نريد

شكر الاستعمار :

أعلنت نقابة الصحفيين - يوم الخميس الماضى - عن محاضرة تلقيها زوجة أحد الزملاء موضوعها « أسرار المهنة في وحلتي بشمال إفريقيا » وامتلات قاعة فاروق الأول للمحاضرات في نادى النقابة ، يجمهور من الجنسين وقدمت السيدة على أنها صحفية ، ولذلك سنتحدث عن « أسرار المهنة » وتحدثت السيدة فقالت إنها ليست صحفية ثم أبدت هذا القول بمدم تمرضها المهنة وأسرارها ...

كثيراً ما سمعت محاضرات أو (شربتها) كما يقولون في اللغة الدارجة عما يقع فيه المرء وهو غافل . . فلم أرد أن أشرك قراء « الأدب والفن » في بلوته !

وكنت أغضى على هذه المحاضرة ، لو اقتصر الأمر فيها على فراغها من شيء ذى بال ، أو اقتصر على اللغة التي تحدثت بها السيدة إذ جانبت الفصيحة وكسرت العامية . . وكنت أستطيع أن أقضى أيضاً عن نهاون نقابة الصحفيين في اختيار ما يجمع من أجله الناس في قاعاتها الفخمة

والكن الذي لم أستطع له كتبنا ، وهو الذي حدا بي إلى كتابة هذا ، أن السيدة الفاضلة ، وهى تتحدث عن رحلتها بشمال إفريقيا ، شكرت فرنسا . . لا على ما قام به الحكام الفرنسيون هناك من تسهيلات أو حفاوة بالزملاء في رحلتهم ... وإنما شكرت